مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد8/العـدد: 01 (2020)، ص ..-- ..

نقد العهد القديم عند ابن حزم الظاهري

Criticism of the Old Testament according to Ibn Hazm el zahiri

نادية لعروسي[1]،

[1] المدرسة العليا للأساتذة (الجزائر)، laroussi29n@gmail.com

تاريخ الاستلام: ../../2020 تاريخ القبول: ../../2020 تاريخ النشر: ../../2020

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن الجوانب النقدية في شخصية ابن حزم الظاهري، والتعرف على أهم الآليات المنهجية التي استخدمها ابن حزم إزاء نقده لكتب العهد القديم، إذ نوع في أساليب الدراسة واستعان بمنهج النقد النصي والمقارن في كتاباته، فكانت الآليات المنهجية في علم الحديث هي العمدة في هذا المجال، وبمثابة قواعد منهجية دقيقة بالغة الأهمية في نقد أسفارهم، إذ كان يؤمن إيمانا مطلقا، لا ريب فيه بأنّ كتب العهد القديم، قد تعرضت لتحريف مقصود، فكانت صناعة إنسانية وليست وحيا إلهيا، وقد شكلت نتائجه التي توصل إليها منطلقا أساسيا للعلماء المشتغلين في حقل مقارنة الأديان.

كلمات مفتاحية: العهد القديم، التوراة، المنهج، منهج النقد النصي.

Abstract:

The point of this intervention is to show Ibn Hazm's criticizes of old testament books, he studied this topic in different methods and used in his writings the process of historical and contextual criticism, Ibn Hazm inspired the idea of the religious text's criticism from the methodology of modern scholars, the rules of modern scholars was considered as a very important and accurate rules in the criticism of religious texts , he believed in an absolute way that the old testament's books was distorted, the results that he found was a fundamental springboard for the philosophers working on the field of comparative religion

Keywords: Old testament, Torah, Method, contextual criticism method.

المؤلف المرسل: نادية لعروسي،

1.مقدّمة

إن دراسة الأديان من الناحية المعرفية والمنهجية لها أهمية كبيرة عند مفكري الإسلام ومكانة مرموقة للشخصية الإسلامية حتى يتسنى لها فهم كتاب الله عز وجل فهما دقيقا باعتباره ذلك النموذج الأمثل الذي يحتذى به، إذ يشكل القرآن خطاب حجاجي بلا منازع غايته التأثير على الإنسانية جمعاء، بل ينشد هدم كل ما يحجب الحقيقة عن العقول من أحكام واهية لا طائلة من ورائها، فكان الباعث الأول في نشأة العلوم الإسلامية، إذ اشتهرت البيئة الإسلامية في الشرق والغرب خلال القرن الثالث والرابع للهجرة بذيوع المناظرات والمجادلات الكلامية بين علماء البيان بمختلف مرجعياتهم، لكن أساليب الجدل والمحاجة لم ينحصر مجالها في أصول الفقه والمسائل الكلامية فحسب، بل انتقلت إلى مجال أكثر حساسية هو مجال الدين، حيث احتدم الجدل الديني بين أصحاب الديانات السماوية الثلاثة (اليهودية والمسيحية والإسلام) وخاصة في البيئة الأندلسية المالكية المشهورة بعدائها الشديد لعلوم الأوائل، واهتم علماء البيان بمختلف فئاتهم ومنطلقاتهم في المجال التداولي الإسلامي بنقد أسفار العهد القديم، حيث استعانوا بالمنهج التحليلي النقدي لإلغاء صفة الوحيية عنها، لقد كان ابن حزم إمام الظاهرية، يعتقد بأن كتب العهد القديم، قد طرأت عليها تغيرات جذرية عبر مراحل التاريخ اليهودي، حيث تعرّضت أسفارهم للتحريف على مستوى المعنى والمبنى، فكان من الضروري إثبات وجود هذا التحريف لإحقاق الحق وللإمساك بزمام الحقيقة التاريخية النسبية، فإذا كان المنهج يشكل خطوة حاسمة في كل العلوم بجميع أشكالها وذو أهمية بالغة، لأن التقدم العلمي رهين باستخدام الطرق العلمية والآليات المنهجية، فهل يمكن الحديث عن مناهج علمية واضحة المعالم عند إمام الظاهرية، أي هل درس أسفار العهد القديم دراسة تحليلية نقدية وفق مناهج علمية دقيقة؟ وهل كان له السبق في وضع اللبنات الأولى لعلم مقارنة الأديان؟

منهجية البحث :

إن طبيعة الموضوع هي التي تحدد طبيعة المنهج، حيث تناولنا الموضوع بالبحث والتمحيص، واعتمدنا على منهجين أساسيين، وهما: – المنهج الوصفي، القائم على وصف أهم الخطوات المنهجية التي انتهجها ابن حزم الظاهري إزاء تحليله النقدي لنصوص أسفارهم.

-المنهج التحليلي، وقد تم ذلك بتتبع نصوص ابن حزم من خلال كتابه الموسوم بـ "**الفصل في الملل والأهواء والنحل**" وكذلك تحليل محتوى بعض نصوص العهد القديم، لإثبات أن هذا العمل لم يجر كيفما اتفق، بل قد تم وفق منهجية علمية صارمة وطرق عقلية منظمة لتجاوز الذاتية نسبيا، وتحقيق النزاهة العلمية التي تعتبر من مميزات كل بحث علمي جاد.

تعريف العهد القديم:

إن العهد القديم هو التسمية العلمية لأسفار اليهود، وليست التوراة إلا جزءا من العهد القديم، وقد تطلق التوراة على الجميع من باب إطلاق الجزء على الكل، أو لأهمية التوراة ونسبتها إلى موسى، لأنه أبرز زعماء بني إسرائيل، وعنده يبدأ تاريخهم الحقيقي، وكلمة التوراة معناها الشريعة أو التعاليم الدينية" (شلبي،1988: 230) ، إن للتوراة أهمية كبيرة عند اليهود وتحتل مكانة مرموقة لا يستهان بها من الناحية الدينية، لأنها بمثابة الأساس أو المصدر الرئيسي لديانتهم، وهي عمدتهم في شريعتهم وأحكامهم الدينية، " وللعهد القديم-أيضا أهمية تاريخية خالصة اتضحت من خلال محتويات الأسفار، ومن بينها أسفار تاريخية خالصة تكاد تخلو من المضمون الديني بالإضافة إلى الأسفار التي اختلطت فيها المادة الدينية بالمادة التاريخية وقد تبين طغيان الصفة التاريخية (...) وسماها علماء النقد بالكتابات التاريخية" (محمد خليفة و هويدي، 2001: 1-2) ، والجدير بالذكر، نجد أن التوراة لم تكن محل إجماع كل الفرق اليهودية وحتى المسيحية، فلم يتفقوا على محتوياتها وأحجامها، مما ترتب عن ذلك تعدد نسخها واختلافها إلى حد التناقض.

تصنف الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى إلى قسمين: كتب العهد القديم، وكتب العهد الجديد، يقول رحمة الله الهندي في هذا السياق:" قسم منها يدّعون أنه وصل إليهم بواسطة الأنبياء الذين كانوا قبل عيسى عليه السلام، وقسم منها يدّعون أنه كتب بالإلهام بعد عيسى عليه السلام، فمجموع الكتب من القسم الأول يسمى بالعهد العتيق، ومن القسم الثاني بالعهد الجديد، ومجموع العهدين يسمّى: (بيبل -Bible)، وهذا اللفظ يوناني بمعنى الكتاب" (الهندي، 1989: 89) ، فكانت بعثة كل من موسى وعيسى عليهما السلام، تعد مبدءا للفصل بين التاريخ اليهودي والمسيحي، وكذلك تحديدا لوجود الكتابين العتيق الذي يتضمن التوراة، أي الأسفار الخمسة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام وكتب الأنبياء

المتقدمين والمتأخرين بعد عيسى، والجديد يحوي على الأناجيل الأربعة (متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا) ولواحقها، حيث تحتوي المجموعة الأولى:" التوراة، أو الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام، وتسمى: البنتاتيك Pentatench وهي كما يلي:

1-سفر التكوين أو الخليقة ← نشأة الكون والإنسان الأول.

2-سفر الخروج← تاريخ بني إسرائيل في مصر و قصة موسى عليه السلام.

3-سفر الأحبار أو اللاويين← الأحكام الشرعية المتعلقة بالعبادات و الذبائح والطقوس.

4-سفر العدد← إحصاء قبائل بني إسرائيل ورؤوسهم وجيوشهم.

5-سفر التثنية ← يتعلق بأحكام العبادات و طقوسها " (الشرقاوي، 1990 : 14).

وقد تحدث الباحث أحمد شلبي بإسهاب عن الاختلافات بين المذاهب الدينية وخاصة المسيحية التي لم تتفق حول طبيعتها وعددها، حيث يؤمن البروتستانت بالتوراة وأسفارها الخمسة إلى جانب أسفار الأنبياء والكتابات، ويصنف القسم الثاني" أسفار الأنبياء" وهي نوعان:

- أسفار الأنبياء المتقدمين: وتشمل الأسفار الآتية : يشوع (يوشع بن النون)-قضاة-صموئيل الأول-صموئيل الثاني-الملوك الأول والثاني.
- أسفار الأنبياء المتأخرين: وتشمل الأسفار الآتية: إشعيا-إرميا-حزقيال-هوشع-يوئيل-عاموس-عُربديا-يونان(يونس)-ميخا-ناحوم-حَبَقّوق-صَفَنيا-حجَّى-زَكريا-ملاخي.

القسم الثالث "الكتابات" وهذا القسم يتشعب إلى أنواع ثلاثة (...) ومجموعة هذه الأسفار تسع وثلاثون سفرا وهي الأسفار التي تعتمدها الكنيسة البروتستانتية، أما الكاثوليكية فتضيف سبعة أسفار أخرى" (شلبي، 1988: 230-231).

2. مناهج نقد النص (العهد القديم) وصوره عند ابن حزم:

لقد طغت الصبغة التاريخية على جل أسفار العهد القديم، لأن التوراة انتقلت عبر الأجيال المتلاحقة عن طريق المشافهة ولم تدون إلا بعد ستمائة سنة ، فعلى سبيل المثال، نجد سفر الخروج (Exodus) كان يغلب عليه الطابع القصصي، فهو يحكي قصة اضطهاد ومآسي الشعب الإسرائيلي وتنكيل فرعون لهم،

وخروجهم من مصر ومكوثهم فيها لمدة أربعمائة سنة، ولذلك سمي بسفر الخروج، حيث كان يحصي عدد آل يعقوب ويصف حالتهم المزرية، " وكانت جميع النفوس الخارجين من صلب يعقوب سبعين نفسا...ثمّ قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف. فقال لشعبه:" هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منّا. هلمّ نحتال لهم لئلا ينموا، فيكون إذا حدثت حرب أنّهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض". فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم...فاستعبد المصريّون بني إسرائيل بعنف" (http:sttakla.org، (د-ت)) .

يعتبر ابن حزم الظاهري من أكبر فقهاء الإسلام تأليفا، فهو الفقيه والأديب والشاعر والمتكلم، أي العالم الفذ الذي ألم بجل علوم عصره، وهو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (...) بن يزيد، مولى يزيد بن أبي سفيان بن أمية (...) مولده بقرطبة من بلاد الأندلس يوم الأربعاء من شهر رمضان سنة أربع و ثمانين و ثلاثمائة في الجانب الشرقي منها. و كان حافظا عالما بعلوم الحديث و الفقه، مستنبطا للأحكام من الكتاب والسنة بعد أن كان شافعي المذهب، فانتقل إلى مذهب أهل الظاهر(...) و كان أديبا شاعرا طبيبا له في الطب رسائل(...) أخبر ولده أبو رافع الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو أربعمائة مجلد، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة" (ابن خلكان، (د-ت): 326-325)، وهذا التأليف الكثير يدلّ على علمه الغزير الوافر والشامل لكل ميادين العلوم، لقد طرق كل أبواب العلم، بل امتد الأمر إلى مجال نقد الأديان.

واعتمد ابن حزم في عملية النقد للعهد العتيق على المصادر الإسلامية والمصادر اليهودية، لأن أسفارهم باعتبارها مصادر تاريخية، تلاحظ بطريقة غير مباشرة، أي تعرف عن طريق الآثار التي تخلفها الظاهرة من وثائق وروايات، ونجد ابن حزم باعتباره إماما للظاهرية، يتمسك بالنص ويعطي له الأولوية كوسيلة ناجعة للاستدلال والمحاجة، فليس هناك حجة أقوى من كلام الله، ولا يوجد كلام يضاهي القرآن الكريم، لأنه الكتاب الأزلي والمعجزة الخالدة الباقية إلى أبد الدهر وكلام الله القديم الكامل لا تشوبه الشوائب الإنسانية، قد جاء بأفصح الألفاظ وأرفعها، واشتمل على الرونق وحسن التركيب، بل كان الإعجاز من باب التحدي للإنسانية جمعاء أن يأتوا بمثله، فقد اعتمد على القرآن والسنة الشريفة لإثبات

أنها مبدلة ومحرفة، إذ كان يقارن بين نصوص التوراة ثم يستدل بالآيات القرآنية كأداة نموذجية للإقناع، ويعتبر هذا الأسلوب مألوفا عنده متضمن في مجادلاته للفرق الكلامية والدينية، حيث يعمل على اكتشاف مناقضات الخصوم حتى يبطل نتائجها، ولذلك نجده يميّز تمييزا واضحا بين جدل محمود يبتغي الحق ويذود عنه وهو واجب شرعا، وجدل مذموم لا يستند إلى علم وبدون حجة، يبتغي هدم الحقيقة ويستهدف التمويه، يقول (ر.أرنلدز) في هذا المضار: "إذا اتخذنا الجدل كما نفعل بمعنى الحوار مع الخصم، لرفضه أو إبطال آرائه وتوضيح طرق الحقيقة، يمكن أن نقول إن القرآن هو الذي يتحكم فيها(...) إنّ الحقيقة الدينية المتمثلة في النص القرآني هي معيار الجدل عند ابن حزم، وعن طريقها يتم تقييم الأخطاء" (Arnaldez, 1956, : 200) ، فكان الوحي عند ابن حزم هو الفيصل، وأساس التمييز بين المعرفة الصحيحة والمعرفة المبتدعة الفاسدة.

كان القرآن ولا يزال نبراسا يرشد المسلمين كافة إلى سواء السبيل، ومعيارا نموذجيا في التمييز بين الحق والباطل من الأخبار، قد أخبرهم عن عملية تحريف هذه الكتب التي يزعمون بأنها مقدسة، فالنصوص المقدسة في الديانة اليهودية باعتبارها مصادر تاريخية إرادية، تتضمن أكاذيب واهية وبهتانا مركبا وتناقضا مزدوجا، ذاتي ومادي، يقول الباحث حمدي عبد الله الشرقاوي في هذا الشأن: " استند علماء الإسلام ابتداء إلى نصوص "مرجعية" مثّلت أحكاما قطعية بحصول تغيير ما، في نصّ التوراة والإنجيل، قال تعالى:(وقد كانَ فريقٌ منهم يَسمعُونَ كلامَ الله ثمَّ يحرّفونهُ من بعد مَا عقلُوهُ وَهُم يَعلمونَ)[البقرة:75]، (وإنَّ فريقًا منهُم لَيكتُمُونَ الحَقَّ وهُم يَعلمُونَ)[البقرة: 146] " (الشرقاوي، 2008: 99) ، واعتمد كذلك على السنة الشريفة فكان الرسول صلى الله عليه وسلم مرشدهم في هذا المجال، حيث "جرت مناقشات بين الرسول وبين اليهود ، وكان محسور بن سبحان هو المتحدث عن اليهود، وقد سأل هذا رسول الله فجاء الجواب من الله "ولوكان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا" [النساء: 82]، (شلبي: 1988:37)، واستعانوا في دراستهم بأسفار التوراة الخمسة وملحقاتها وكذلك على التلمود، إذ أعتبر هذا الأخير مجرد امتداد وتكرار لأسفار موسى، وكان من تأليف حاخاماتهم، يحتل مكانة مرموقة عند الشعب اليهودي، وكان عندهم محل تقديس وتبجيل، بل اعتبره بعض الحاخامات وحيا منزلا وأفضل من أسفار موسى،

يقول يوسف نصر الله مفسرا لطبيعة التلمود وأسباب نشأته:"أخذ الربيون والحاخامات تعاليمهم عن الفارسيين الذين كانوا متسلطين على الشعب أيام المسيح يحضونه على إتباع شريعة موسى... وبعد المسيح بمائة وخمسين سنة خاف أحد الحاخامات المسمى يوضاس أن تلعب أيدي الضياع بهذه التعاليم فجمعها في كتاب سماه (المشنا) وكلمة مشنا معناها الشريعة المعتادة المكررة لأن شريعة موسى المرصودة في الخمسة كتب التي كتبها مكررة في هذا الكتاب أما الغرض منها فهو إيضاح وتفسير ما التبس في شريعة موسى وتكملة تلك الشريعة على حسب ما يدعون" (نصر الله، 1899: 29) ، وعند استعانته بأسفار العهد القديم لم يطلق عليها أسمائها الأصلية، بل استعمل أسماء معربة، وهذا يدل دلالة واضحة على اعتماده على الترجمة العربية للتوراة، وبالموازاة كان يستعمل بعض الأسماء العبرية، يقول أحمد محمود هويدي: "استخدم السفر الأول بدلا من سفر التكوين، والسفر الثاني بدلا من سفر الخروج وهكذا باستثناء سفر التثنية حيث أشار إليه بقوله "سفر التكرار" ... أما بقية أسفار العهد القديم فكان يذكرها باسمها العبري مكتوبا بحروف عربية باستثناء سفر المزامير كان يطلق عليه الزبور تأثرا بما ورد في القرآن الكريم" (هويدي ، 2014 : 90).

لقد استمد علماء الأصول منهجية نقد أسفار اليهود من علماء الحديث في تمحيص السنة الشريفة، إذ وضع المحدثون مقاييس علمية دقيقة للتمييز بين صحيح السنة وضعيفها، وأفردوا لها علما خاصا، يعرف بـ علم الجَرح والتعديل، " وهو علم يتعلق ببيان مرتبة الرواة من حيث تضعيفهم أو توثيقهم بتعابير فنية متعارف عليها عند العلماء، وهي دقيقة الصياغة، ومحدّدة الدلالة، مما له أهمية في نقد إسناد الحديث، وقد استجاز العلماء ذكر عيوب رواة الحديث عند جرحهم لهم، ولم يعتبروا ذلك من الغيبة المحرّمة" واستدلوا على ذلك بأحاديث" (الغوري، 2007: 20) ، احتل هذا العلم الصدارة واعتبر من أهم علوم الحديث وأعظمها مكانة ، لأنه صيانة للسنة من التحريف والتزييف، إذ به يتميز الصحيح من السقيم والأصيل من الدخيل، فكان علما إسلاميا أصيلا، قد تفردت به الحضارة الإسلامية، حيث اشترط علماء الحديث في الراوي: الإسلام والبلوغ والعدل والضبط، وعملوا على نقد السنة من ناحية الإسناد والمتن، أي نقدا ظاهريا وباطنيا، فكان الإسناد جوهر الدين وعماده، يقول الإمام عبد الله بن المبارك،

رضي الله عنه، الإسناد عندي من الدّين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء، ولكن إذا قيل له: من حدثك؟ بقي" و قال سفيان الثوري: " الإسناد سلاحُ المؤمن، فإذا لم يكن معه سلاح؛ فبأي شيء يقاتل" (الغوري، 2007: 13).

1.2 منهج النقد النصي: إن النقد النصي للتوراة ولواحقها، نتج عن أعمال فكرية متراكمة عبر مراحل التاريخ اليهودي، يقول أحمد محمود هويدي حول هذا الموضوع: "إن النص المتداول حاليا هو مجموع النصوص التي نتجت عبر التاريخ. يدل على الأعداد الوفيرة من المخطوطات في المكتبات والمتاحف والتي تظهر نص العهد القديم سواء في لغته الأصلية–العبرية– أو ترجماته المختلفة قد عدل كثيرا. وقد ساهم في النص الحالي أجيال كثيرة...فالعمل في نص العهد القديم لم يتوقف مطلقا" (هويدي، 2014: 226) ، ويدعى النقد نصي باللغة الإنجليزية (Textual criticism) " إن كلمة النقد في اللغة اليونانية "Krino" وتعني تحديدا "اختر" "انتقي" "انتخب"، أي القدرة على التمييز وبدونه لا يكون هناك رأي محدد واضح في أمر ما" (...) والنقد الكتابي هو: العلم الذي نصل به إلى أكبر قدر ممكن من المعرفة حول النص الأصلي للكتاب المقدس الذي كتبه كتبة الأسفار، كاتبه، تاريخه، حالته الحالية" ومن بين أنواعه: – النقد الأدنى(النصي): وهو العلم الذي يهتم بدراسة النص (العبري/الأرامي/اليوناني) لغويا، تاريخيا، اصطلاحيا بجانب موقع النص في مخطوطات الكتاب المقدس من حيث صحته، أصالته في النص المخطوط، احتمالية وقوع خطأ نساخه وعليه يذهب الناقد من هذه المدرسة إلى دراسة النص للوصول إلى أكبر قدر ممكن من المعرفة حول ما كتبه الناسخ" (أليكساندر، 2008، WWW.servant) ، ويعد هذا المنهج العلمي طريقا فعالا لاقتناص الحقيقة التاريخية النسبية، حيث يهدف إلى محاولة بناء النص الأصلي أو إعطاء صورة تقريبية له، لأن التوراة الحقيقية قد تعرضت لتلف مقصود، إن مفهوم النص في الرؤية الإسلامية يختلف جذريا عن النص التوراتي باعتباره تراثا تاريخيا وصناعة إنسانية، قد ساهم العلماء في تطويره وتنقيحه للوصول إلى صورة تقريبية موحدة، حيث كان عمل الكتبة أو النساخ مستمرا ومتواصلا عبر مراحل التاريخ اليهودي، تنحصر غايتهم في تحقيق الإجماع بين مختلف المذاهب الدينية وحفظ نسخة موحدة من أسفار العهد القديم أو ما يدعى بالناموس وهو أسفار موسى وبعض لواحقها، وبالتالي أضحى

الإنسان هو الذي ينتج المعنى ويخلق النص خلقا ، بينما كان النص القرآني ولا يزال حقيقة ثابتة لا تتغير بتغير العصور والأمصار، يعلو على تصورات البشر ومقاصدهم، وباعتبارها وحيا إلهيا فهو مفهوم سابق عن الفهم البشري، ومعياره الوحيد هو المطابقة، أي أن تكون المطابقة بين العلم الإنساني من جهة والمعنى الثابت الوارد في النص القرآني من جهة ثانية.

وانتبه ابن حزم ببصيرة ثاقبة إلى التعديلات المستمرة والمتعمدة لهذا النص الموروث والمتراكم الذي كان بعيد كل البعد عن النص الأصلي، واتخذ من عدم تواتره أو انقطاعه كدليل قاطع على تحريفه وزيغه عن منهج الحق، إذ قام بعملية استقراء وتتبع التاريخ اليهودي على جميع الأصعدة، وما شهده من اضطرابات ونزاعات خاصة في المجال السياسي والاجتماعي والّتي من شأنها أن تؤثر سلبا على عملية النقل، فكان المقياس الجوهري للتمييز بين الصحيح والفاسد في أسفار التوراة هو تواتر النقل وعدم انقطاعه، فإذا انتفى هذا الشرط انتفت معه صحة النقل، وقد انتهج إمام الحرمين أبو المعالي الجويني (ت478) الطريق نفسه وأقر بالتحريف التوراة من ناحية المعنى والمبنى، ووصف حالتهم المزرية التي يندى لها الجبين بعد الغزو البابلي بأحسن وصف في كتابه الموسوم بـ "**شفاء الغليل فيما وقع في التوراة والإنجيل من التّبديل**"، إذ تعرضت توراتهم لإتلاف مقصود، وأثبت أنّ عزرا (عزير)، قد نسخ التّوراة في بابل في العراق، يقول الإمام الجويني في هذا الصدد: "إنّ التوراة التي بيد اليهود الآن: هي التوراة التي كتبها: عَزرا الورّاق، بعد فتنتهم مع نَبُوخذ ناصرّ (...) لا يُعبأُ بهم، ولا بعددهم، وجعله أموالهم غنيمة لسراياه، وعساكره، وإتلافه ما بأيديهم من كتب لعدم انقياده لأحكام شريعتهم، وجزمه بفساد أعمالهم، ونصبه في بيت عبادتهم صنما (...) والحال كذلك-جيل. حتى كان من بقي، وظفر بشيء من أوراقها، يقصد المغائر، ويحيّل في قراءتها خلسة (...) وهذه النسخة كتبها عَزرا قبل بعثة المسيح –عليه السلام- بخمسمائة سنة، وخمس وأربعين سنة. ولم يكن على وجه الأرض نصراني" (الجويني، (د-ت): 31.

ويعتمد النقد النصي على مرحلتين أساسيتين، هما: النقد الباطني (الداخلي) والنقد الظاهري (الخارجي)، ففي الأول يعتمد في تحليليه النقدي على مصدر واحد أو نسخة واحدة، أما في الثاني يعتمد على تعدد المصادر، لذا كان "المقصود بالنقد الداخلي نقد نص ما ورد في نسخة واحدة مرتين بينهما

اختلافات إلى حد ما، وأما النقد الخارجي يُقصد به مقارنة نص ما في عدة نسخ مختلفة، أو مقارنة نص ما أصلي مع الترجمات المختلفة لنفس النص" (هويدي، 2014: 108-107)، ونجد ابن حزم، قد استخدم النقد النصي الباطني الذي يعتمد على أحد مبادئ المنطق الصوري وهو مبدأ عدم التناقض، حيث يثبت وجود تناقض النص مع نفسه ، أي ما يدعى بالتناقض الصوري، ويقدم ابن حزم أمثلة حية على هذه الصورة، فمثلا ما ورد بشأن فرعون، الذي ذكرت التوراة في (السفر الثاني) إهلاك جميع دوابه في وباء عام، شمله وأهل مصر جميعا، ثم بعد ذلك تذكر التوراة: أن الله تعالى أنذر فرعون بأنه سوف يهلك أنعامه بالبرد " (ابن حزم، 2005: 157-154)، وناقد الأديان في هذا المجال لا يعتمد على منهج النقد النصي فقط، بل يستعين إزاء عمله التحليلي بالمنهج التاريخي والمقارن، " ونلاحظ أن مفكري الإسلام ، إمعانا في الدقة والمنهجية، وظّفوا أهم طرق المنهج الأنتروبولوجي التي عرفت فيما بعد بـ " الإثنوجرافيا" Ethnographie ، و"الإثنولوجيا" Ethnologie، فمن خلال الأُولى وصفوا وعرضوا العقائد وأهم الشرائع من زاوية تأثيرها وتأثُرها بعناصر البيئة الاجتماعية والسياسية والثقافية المختلفة لمجتمع كل ديانة" (الشرقاوي، 2017: 85)، إن أفعال العقل أو صور الاستدلال، تتكامل فيما بينها من الناحية الإجرائية ولا يمكن الفصل بينها عمليا.

2.2 المنهج المقارن

كان ابن حزم ابن بيئته الأندلسية المشهورة بمناظراتها ومجادلاتها الكلامية بين ملل مختلفة وثقافات شتى، وقد شكلت هذه البيئة المشحونة بالصراعات والتصدعات عاملا حاسما في نشأة عدة علوم كعلم تاريخ الأديان ومقارنة الأديان، الذي يهدف إلى اكتشاف مواطن الاختلاف والتشابه بين مختلف الملل والنحل، فهو علم إسلامي صرف، قد ترعرع في أحضان المجادلات الكلامية، ولم يكن من إبداع العقلية الغربية فحسب، وعرف ابن جزم بلسانه الحاد واللاذع وجدله العنيف، قد ساهمت ثقافته الواسعة في معرفة الفرق اليهودية المتعددة التي لا تتفق حتى في أصول ديانتهم، حيث عمل على تصنيفها إلى خمس فرق وهي:

1-السّامرية: وهم يقولون إنّ مدينة القدس هي نابلس(...)ولا يعرفون حرمة بيت المقدس ولهم توراة غير التوراة التي بأيدي سائر اليهود ويبطلون كل نبوة كانت في بني إسرائيل بعد موسى -عليه السلام-

2-الصدوقية: (...) هم يقولون بين سائر اليهود إنّ العزير ابن الله تعالى وكانوا بجهة اليمن.

3-العنانية:...قولهم: إنهم لا يتعدون شرائع التوراة وما جاء في كتب الأنبياء -عليهم السلام-ويتبرءون من قول الأحبار ويكذبونهم.

4-والربانية: وهم الأشعنية القائلون بأقوال الأحبار ومذاهبهم وهم جمهور اليهود.

5-والعيسوية: (...)وهم يقولون بنبوة عيسى ابن مريم و محمد -صلى الله عليه وسلم-" (ابن حزم،، 2005 : 102-101) ، واستخدم ابن حزم المنهج المقارن الذي هو في الأساس منهج استقرائي، يقوم على تتبع الجزئيات للوصول إلى حكم كلي ، لمعرفة مواطن الاختلاف والاتفاق بينها، إذ كان الاختلاف إلى حد التناقض في الأسس التي تنبني عليها الديانة اليهودية هو السمة المميزة لها، وقد شكل هذا الأخير دليلا قاطعا على ظاهرة التحريف التي تعرضت لها التوراة، إذ هي مبدلة ومحرفة على حد تعبيره، يقول الباحث حسن الباش في هذا السياق:" في سبيل المقارنة الجادة فقد ذكر الفرق اليهودية السامرية والصدوقية والعنانية والعيسوية(نسبة إلى أبي عيسى الأصبهاني اليهودي)، وقد ذكر بعض الاختلافات بين هذه الفرق. ويأخذ بالمناقشة فرق الربانية(أي التلموديين) وهم الكثرة من اليهود فيدحض مزاعمهم في قضية النبوات والنسخ والمعجزات" (الباش، 2011: 45).

3أشكال النقد عند ابن حزم:

لاغرو أن لابن حزم السبق في استعمال وتطبيق مناهج جديدة ورائدة في نقد العهد العتيق، إذ اتخذت عملية النقد عنده أشكالا متعددة وصورا متنوعة وهي كما يلي:

1.3 النقد الأخلاقي الديني: تبرز هذه العملية بكل وضوح الاختلاف الجذري بين التصور الإسلامي للإله والتصور اليهودي، فالأول يقوم على التوحيد كقيمة حاكمة والتنزيه، بينما الثاني يقوم على التجسيم والتشبيه، إذ وقعوا في براثين التشبيه والمماثلة بين الخالق والمخلوق، بين الله بديع السموات والأرض، مالك الملك، الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء، وبين كائن متناهي قاصر مصيره الأفول أو الفناء كصفة ذاتية

كامنة في طبيعته، وكما هو مألوف عند إمام الظاهرية يعطي الصدارة للنص، فيستدل بأدلة نقلية ويقارن بين ما ورد في توراتهم من كلام مبتذل، لأنهم يصفون الله بتعبيرات جسمية لا تليق بمقامه المقدس، فدين التوحيد يرفض التشبيه وسائر وسائله، لأن الله الحق المتجاوز لأي نعت تجرد عن المثيل والنّد، يقول ابن حزم:" قال إن الله عز وجل قال لبني إسرائيل لقد رأيتموني كلكم من السماء فلا تتخذوا معي آلهة الفضة ثم قال بعد ذلك ثم صعد موسى وهارون وناداب و أبيهو وسبعون رجلا من المشايخ ونظروا إلى إله إسرائيل وتحت رجليه كلبنة من زمرد فيروزي وكسماء صافية ولم يمد الرب يده إلى خيار بني إسرائيل الذين نظروا إلى الله وأكلوا وشربوا وقال بمقربة من ذلك وكان منظر عظمة السيد كنار آكلة في قرن جبل يراه جماعة من بني إسرائيل. قال أبو محمد هذا تجسيم لاشك فيه وتشبيه لا خفاء به وليس هذا كقول تعالى(وجاء ربُّك والملكُ صفًا صفًا) [الفجر: 22] ولا كقوله تعالى: (إلَّا أن يأتيهُمُ اللهُ في ظُلل من الغمام والملائكةُ)[البقرة: 210] " (ابن حزم، 2005: 161) ، وإمام الظاهرية في موضوع التوحيد يتمسك بظاهر النص، أي المعنى اللغوي الحدسي المؤسس على أوائل العقل، ويرفض رفضا قاطعا التأويل كمنهج تميز به علم الكلام المعتزلي، فيقول في هذا الشأن:" لأن هذا كله على ظاهره بلا تكلف تأويل إنما هي أفعال يفعلها الله عز وجل تسمى مجيئا واتيانا ولا مثل قوله تعالى: (يدُ الله فوق أيديهم) [الفتح: 10] (...) وسائر ما في القرآن من مثل هذا فكله ليس بمعنى الجارحة لكن على وجوه ظاهرة في اللغة" (ابن حزم، 2005: 161) ، ونجد ابن حزم كسابق عهده ينوع من أساليب الاستدلال ولا يكتفي بالدليل السمعي، بل يكذب ما يدعونه في تشبيه آدم عليه السلام بالله تعالى بالدليل العقلي واللغوي، أي ما يرفضه العقل والبديهة، يقول ابن حزم: " وهذا يعلم بطلانه ببديهة العقل، إذ الشبه والمثل معناهما واحد، وحاشا الله أن يكون له مثل أو شبيه" (ابن حزم، 2005: 119) ، وهذا كفر صريح بالألوهية، حيث جعلوا لله أندادا، إذ للتوحيد ضدان التعطيل والتشبيه.

كذلك اتجه في نقده الأخلاقي لأسفار التوراة إلى تفنيد إدعائهم الباطل وكذبهم المركب بأن لوط عليه السلام قد ضاجع أو زنا بابنتيه، فهذا عنده " إطلاق الكذاب الواضح لهم هذه الخرافة–لعنة الله– هذه الطومة (الداهية) على الله عز وجل من أنه أطلق نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم على هذه الفاحشة

العظيمة من وطء ابنتيه واحدة بعد الأخرى" (ابن حزم، 2005: 136) ، وقد ذكر أمثلة كثيرة تتحدث توراتهم المبتدعة عن اقتراف الأنبياء لهذه الفاحشة وكذلك ارتكابهم لجريمة القتل الشنعاء التي تعتبر من كبائر الشرك، وصاحبها مخلد في النار، فهو يذكر حادثة وقعت بعد موت موسى عليه السلام ثم موت أول ملك لهم مقتولا، حيث " وولي أمرهم داود عليه السلام وهم ينسبون إليه الزنا علانية بأم سليمان وأنها ولدت منه من الزنا ابنا مات قبل ولادة سليمان فعلى من يضيف هذا إلى الأنبياء عليهم السلام ألف ألف لعنة عليهم وينسبون إليه أنه قتل جميع أولاد شاول لذنب أبيهم" (ابن حزم، 2005: 188).

2.3النقد التاريخي والجغرافي: يعتبر التاريخ مخبرا لناقد الأديان، حيث تعد المعرفة التاريخية معيارا أساسيا لتمحيص الأخبار والروايات والتحقق من صحتها، فأسفار العهد العتيق باعتبارها مصادر تاريخية، فهي مظنة للكذب، لأنها تعرضت لتحريف مقصود، فهي غير دقيقة من الناحية التاريخية والجغرافية، لذلك يشترط لناقد الأديان أن يتصف بالروح العلمية ومن مقوماتها الخاصة، الموضوعية والروح الانتقادية إلى جانب سعة الإطلاع، أي أن يكون ملما بعلوم عصره، وهذه الصفات هي التي مكنت ابن حزم من الإمساك بزمام الحقيقة التاريخية النسبية وبناء الحادثة التاريخية بدقة متناهية ونزاهة، واعتمد ابن حزم في عمله النقدي على المصادر الرئيسية، أي نصوص التوراة ذاتها، ولا يستعين برواية واحدة، بل يقارن بين عدة روايات التي تذكر نفس الحادثة، وكان إمام الظاهرية متمرسا في علم النسب، حيث أفرد لهذا العلم كتابه الموسوم بـ " **جمهرة أنساب العرب** " فهو من أدق الكتب وأغناها، امتاز بذكر أصول العرب والأشراف من أهل البيت والتابعين والملوك أصحاب السلطان، يعد جزء من مباحث علم التاريخ، لأنه لا يكتفي بذكر الأنساب فحسب، بل الظروف التاريخية والقبلية التي أحاطت بهم، وكان يحتل هذا العلم مكانة مرموقة في البيئة الإسلامية، فهو علم عزيز شريف، لأن مقصوده التعارف أو التواصل بين الأمم قاطبة، يقول ابن حزم " فقد جعل تعارف الناس بأنسابهم غرضا له تعالى في خلقه إيّانا شعوبا وقبائل؛ فوجب لذلك أن علم النسب جليل رفيع" (ابن حزم، (د–ت): 2–1) ، واستطاع عن طريق تضلعه في علم الأنساب التدقيق في أعمار الأنبياء، لأن التوراة مليئة بالأخطاء، فلم تحص بدقة أعمارهم، فمثلا هناك اضطراب في أعمار أبناء نوح، وكان ابن حزم ينشد الدقة وينبذ الترجيح وعدم الاتساق، حيث

أضفى على الظاهرة التاريخية صبغة كمية، فيقول: " وقالت توراتهم إن نوحا لما بلغ خمسمائة سنة ولد له يافث وسام وحام ثم ذكرت أن نوحا إذ بلغ ستمائة سنة كان الطوفان ولسام يومئذ مائة سنة وقالت بعد ذلك إن سام لما كان ابن مائة سنة ولد أرفخشاد لسنتين بعد الطوفان وهذا كذب فاحش" (ابن حزم، 2005: 126) ، فعمل ابن حزم على تفنيد هذه الرواية وحساب بدقة متناهية عمر سام ابن نوح عليه السلام، "فسام كان إذ ولد به أرفخشاد ابن مائة سنة وسنتين وهذا كذب لا خفاء به" (ابن حزم،: 126) ، ولم يكتف بالكشف عن الأخطاء في حساب أعمار الأنبياء، بل " يقدم نقدا تاريخيا لأسماء الأماكن التي يختلف أسلوب تحديدها وزمن تسميتها في العهد القديم عما أثبتته الدراسات التاريخية والأثرية. اعتبر ابن حزم عدم التطابق بين الأماكن الجغرافية كما هي في التوراة وطبيعة جغرافية العمران دليلا على تبديل التوراة وتحريفها. يقابل هذا الاتجاه النقدي عند ابن حزم ما يعرف حاليا باسم "اتجاه قضايا الأماكن التاريخية ""Die Frage nach historische Orten" ويعني هذا الاتجاه بنقد الأماكن التاريخية والجغرافية الواردة في العهد القديم والبحث عنها ومطابقتها للواقع التاريخي" (هويدي ، 2014: 104) .

خاتمة

وهكذا إنصاف للحق من الواجب الإشادة بالمجهودات الجبارة الّتي قدمها مؤسس المذهب الخامس بجدارة واستحقاق وعمله المنهجي المتفرد في مجال علم مقارنة الأديان، فكان بمثابة الفيلسوف يرفض الاستكانة والتصديق الساذج وينبذ التقليد، ويقيم كل شيء على دعائم نقدية، ومن نتائج هذه الدراسة مايلي:

-كان لابن حزم الفضل الكبير في إرساء الدعائم الأولى لعلم مقارنة الأديان وكذلك نقد الأديان الذي يعتبر أحد فروعه، وقد كان لهذا العمل انعكاسات جليّة، حيث ترك بصماته الواضحة في أعمال فلاسفة العصر الحديث الذين أرادوا تجريد الدين من الشوائب الإنسانية وتقويض سلطة الدولة الثيوقراطية الدينية، فانحصرت غايتهم في تأسيس الدين على دعائم نقدية عقلية أو ما يعرف عندهم بـ"الدين العقلي".

- نوع ابن حزم من صور الاستدلال وتمكن من استخدام آلياته ببراعة ودقة متناهية، حيث استعان بعدة مناهج في عمله النقدي، قد شكلت في مجموعها منهجية البحث عند مفكري الإسلام إزاء دراستهم

للأديان، حيث امتحن صحة نصوص أسفار العهد القديم وفق ضوابط منهجية دقيقة للكشف عن مواطن التناقض في هذه النصوص التي يدعون بأنها مقدسة، وأوضح تناقضها مع أوائل العقل وبداهة الحس والحقائق الثابتة من الناحية التاريخية، بل أثبت عدم اتساقها مع قواعد السلوك والمعايير الأخلاقية.

– إن لدراسة الأديان من الناحية العلمية أهمية كبيرة في الثقافة العربية الإسلامية حتى ينتصر المسلم للإسلام باعتباره دين الحق ويتمكن من الفهم الصحيح للقرآن الكريم باعتباره المعجزة الكبرى الباقية إلى أبد الدهر، إذ حث النص القرآني على حرية الفكر والاعتقاد والحفاظ على الكرامة الإنسانية، وأنشأ الإسلام بعالميته أمة متفردة مؤسسة على التوحيد كقيمة حاكمة وروح التسامح، تجاوزت حدود الزمان والمكان وعقال العرق الضيّق، وشيمة التسامح هي التي مكنت العلماء بمختلف مرجعياتهم من دراسة الأديان دراسة نقدية منهجية.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن حزم، (2005) .*الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1*، مصر : دار ابن الهيثم.
- ابن حزم، (د-ت). *رسائل ابن حزم* .مصر :مكتبة الخانجي.
- ابن حزم ، (د-ت) .*جمهرة الأنساب* .مصر :دار المعارف.
- ابن حجر،أ .(2001). نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، ط1، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، السعودية.
- ابن خلكان، (د-ت) .*وفياة الأعيان* .بيروت :دار صادر.
- ابن منظور، ا .لسان العرب، *مادة دين* .ج3 و 17 .بيروت :دار صادر.
- الباش،ح .(2011) .*علم مقارنة الأديان أصوله ومناهجه* .دمشق :قتيبة للطباعة والنشر.
- الجويني، (د-ت) *شفاء الغليل في التوراة والإنجيل* .مصر :المكتبة الزهرية للتراث.
- الشرقاوي، ح .(2017) .*علم مقارنة الأديان في التّراث الإسلامي* .بيروت :دار الكتب العلمية.

الشرقاوي،م .(1990) .*في مقارنة الأديان* .بيروت :دار الجيل..

- الشرقاوي،ح .(2008) .*منهج القاضي عبد الجبار المعتزلي في دراسة الأديان بين التنظير والتطبيق* . بيروت :دار الكتب العلمية.
- الغوري،س .(2007) .*الميسر في علم الجرح والتعديل* .بيروت :دار ابن كثير.
- الهندي،ر .(1989) .*إظهار الحق* .السعودية :الإدارة العامة للطبع والنشر.
- أليكساندر .(2008) .*المدخل إلى علم النقد النصي للعهد الجديد* ..WWW.servant .
- تكلا هيمانوت ، سفر الخروج، الإصحاح الأول، الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، مصر، http :st-Takla.org
- شازار، ش .(2000) .*تاريخ نقد العهد القديم من أقدم العصور حتى العصر الحديث* .بيروت :المجلس الأعلى للثقافة.
- شلبي،أ .(1988) .*مقارنة الأديان* .مصر :مكتبة النهضة المصرية.
- لاجلوا وسينوبوس. (1981). *النقد التاريخي*. الكويت: وكالة المطبوعات.
- محمد خليفة ,ح ,.وهويدي، أ .(2001) .*إتجاهات نقد العهد القديم* .ط.1، مصر :دار الثقافة العربية.
- نصر الله،ي .(1899) .*الكنز المرصود في قواعد التلمود.ط1* . مصر :مطبعة المعارف.
- هويدي،أ .(2014) .*نقد التوراة في الفكر اليهودي والمسيحي والإسلامي* .مصر :رؤية للنشر والتوزيع.
- هويدي،أ .(2001) .*اتجاهات نقد العهد القديم* .مصر :دار الثقافة العربية.

المراجع باللغة الفرنسية

- Arnaldez. (1956). *Grammaire et théologie chez Ibn Hazm.* Paris: Librairie philosophique, J, Vrin.